المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس لجورج باركلى

بقلم

الدكتور يحيى هويدى

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

حياة باركلى ومؤلفاته

ولد جورج باركلى بأيرلندا فى إقليم كيلكينى Kilkenny ، يوم ١٢ مارس عام ١٦٨٥ . وكان جورج الابن الأكبر لأبيه ، وليم باركلى ، الذى أنجب ستة أطفال . وتابع جورج دراسته الابتدائية والثانوية فى مدينة كيلكينى . ثم سافر إلى دبلن ، عاصمة أيرلندا ، حيث التحق بكلية التثليث فى ٢١ مارس سنة ١٧٠٠ ، وهو فى الخامسة عشر من عمره . وحصل منها على الليسانس عام ١٧٠٤ ، ثم على درجة الماجستير عام ١٧٠٧ . وأخذ فى تدوين يومياته التى نشرت فيما بعد تحت عنوان « كتاب الجماهير » The Commonplace Book بين عامى ١٧٠٥ ، ١٧٠٧ . وكان فريزر A. C. Fraser أول من نشر هذه اليوميات أو المذكرات عام ١٨٧١ فى الجزء الرابع من طبعته لمؤلفات باركلى . ونشرها مرة أخرى لوس A. A. Luce عام ١٩٤٤ تحت اسم « تعليقات فلسفية » Philosophical Commentaries. وفى هذه اليوميات يحدد لنا باركلى موقفه الفلسفى على النحو التالى : « كنت أنحاز بطبيعتى إلى كل ما ورد فى الكتاب المقدس ، وإلى ما كان متفقاً مع الرأى الشائع . وكنت أقف فى جميع أمورى إلى جانب العامة . وأنا أعلم أن هناك عدداً كبيراً من الناس لن يعجبهم منى هذا الموقف . ولكنى مع ذلك أفضل وأتوقع أن تقف إلى جانبى كل هذه العقول التى لم يرهقها العمل الذهنى ، ويفسدها جنون البحث » .

أصبح باركلى قسيساً رسمياً عام ١٧٠٩ ، أى عندما بلغ من العمر ٢٤ عاماً . وفى هذا العام نفسه كتب أول كتاب فلسفى له ، وهو « نحو نظرية جديدة فى الإبصار » An Essay Towards a New Theory of Vision . وقد ذهب فى هذا الكتاب إلى أن رؤية الإنسان للمسافة أو رؤيته للأشياء التى تقع على بعد منه لا يتوقف على حاسة البصر ، بل على حاسة اللمس . ومعنى ذلك أن إدراكنا للامتداد لا يتم عن طريق البصر أو أن إدراكنا للوجود الخارجى للأشياء لا يرجع إلى حاسة البصر . وكان هذا القول مقدمة لإلغاء الوجود الخارجى للأشياء ، وحصر وجودها فى مجرد إدراكها الحسى أو الذاتى .

وأتبع هذا عام ١٧١٠ بكتابه الرئيسى « رسالة فى مبادئ المعرفة البشرية » A Treatise Concerning

the Principles of Human Knowledge . وقد قدم باركلى فى هذا الكتاب مذهبه الفلسفى فى صورته الكاملة وعرضه عرضاً مذهبياً واضحاً . ففى المقدمة تناول نقد الأفكار المجردة أو الكلية ، اعتماداً على الأساس النفسى لا المنطقى الذى تقوم عليه هـــذه الأفكار ، وخلاصته أننا عندما نفكر لا نفكر فى الصور الكلية ، بل فى الصورة الجزئية الخاصة بهذا الشىء أو ذاك ، أو الخاصة بهذه الصفة الحسية أو تلك . وعداء باركلى للأفكار المجردة الكلية بوجه عام وانحيازه إلى جانب النزعة الاسمية ، ليس إلا مقدمة لعدائه الشهير ضد فكرة مجردة معينة ، وهى فكرة الجوهر المادى التى كرس كل حياته الفلسفية لمهاجمتها . وفى هذا الكتاب ، كتاب المبادئ أرجع باركلى جميع صفات المادة إلى الصور وجعل وجود الأشياء قائماً فى مجرد إدراكها esse est percipi. وهذا هو « المبدأ الجديد » الذى توصل باركلى إلى اكتشافه ، وعرف من أجله فى تاريخ الفلسفة بأنه واضع أسس المذهب اللامادى .

وفى عام ١٧١٢ قدم باركلى للعالم المسيحى كتابه « الخضوع الســـلبى » Passive Obedience — أو « المذهب المسيحى الذى يعلمنا كيف نرضخ للقوة العليا التى تتجلى فيما يطلق عليه اسم « قوانين الطبيعة » .

وبعد ذلك بعام واحد ، أى فى عام ١٧١٣ كان قد انتهى من كتابه الذى نقدمه اليوم إلى القارئ العربى وهو كتاب « المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس » Three Dialogues between Hylas and Philonus

وهكذا ، فانه ما أن وصل باركلى إلى سن الثامنة والعشرين حتى كان قدم للعالم مؤلفاته الفلسفية الرئيسية وهى : « نحو نظرية جديدة فى الإبصار » ، و « المبادئ » و « المحاورات » . والمؤلفات التى كتبها بعد ذلك لم يكن لها من الأهمية ما لهذه المؤلفات . الأمر الذى يدل على عبقرية باركلى المبكرة .

وما إن حل عام ١٧١٣ حتى كان باركلى قد سئم حياته الجامعية فى مدينة دبلن ، فرحل إلى لندن ، ومعه مسودات كتاب « المحاورات » ليطبعه هناك ، وليتصل بالوسط الإنجليزى فى العاصمة . فتقدم إلى البلاط ، وعرفه الساسة والوزراء . واستطاع أن يحصل على وظيفة واعظ كنيسة أحد اللوردات وهو لورد « بيتر بارو » وأخذ بعد ذلك نجمه فى الظهور نتيجة لتعرفه بأعضاء حزب المحافظين .

ولكن سرعان ما أحس باركلى بحاجته إلى الابتعاد عن المجتمع الإنجليزى الفاسد . ففكر جدياً فى السفر إلى الخارج . وأتيحت له الفرصة فى نفس السنة التى وصل فيها إلى لندن أى فى عام ١٧١٣ . فسافر مع اللورد « بيتر بارو » ، كواعظ خاص له ، إلى إيطاليا . ولكنه ما لبث أن عاد إلى لندن عام ١٧١٤ . وعاود السفر مرة أخرى إلى إيطاليا عام ١٧١٦ بصفته مدرساً خاصاً لابن أحد أثرياء الإنجليز . وفى هذه الرحلة الثانية عرج على باريس حيث التقى بملبرانش . ويقال إن المقابلة بين الفيلسوفين لم تكن مرضية . وبعد أن طوف باركلى بجنوب إيطاليا وجزيرة صقلية دارساً لأخلاق البشر ومقارناً بين أخلاق الإنجليز والإيطاليين عاد إلى إنجلترا فى أواخر عام ١٧٢٠ ، مزوداً بمعلومات وخبرات كثيرة تتعلق بعادات البلاد التى زارها . وقد ظهر أثر هذا كله بوضوح فى الرسالة التى كتبها بعد عودته . وهى رسالة فى الإصلاح الاجتماعى ، وعنوانها : « رسالة فى المحافظة على بقاء بريطانيا العظمى » . وفى أثناء رحلته الثانية هذه إلى إيطاليا كان باركلى قد استطاع إعداد رسالته « فى الحركة » De Motu . وما إن عاد إلى إنجلترا حتى طبعها عام ١٧٢١ . وفى هذه الرسالة يعود باركلى لمهاجمة التجريد والأفكار المجردة معارضاً وجود حركة

مجردة . ومن ثم ذهب إلى نسبية الحركة ، أى إلى أن الحركة لا تفهم إلا بالقياس إلى جسم متحرك .

وما لبث باركلى أن حصل على وظيفة مشرف على كنيستين يملكهما أحد اللوردات ، وما يتبعهما من الأملاك . وكان من المتوقع أن يستقر فى حياته الجديدة . ولكن يأس باركلى من إصلاح بريطانيا دفعه إلى التفكير فى السفر إلى أمريكا . وكان السفر إلى أمريكا فى ذلك الوقت قد أخذ يستحوذ على اهتمام الناس؛ لأنها كانت تمثل فى نظرهم بلاداً فتية شابة تبشر بالخير . واتجه تفكير باركلى للسفر إلى جزيرة برمودا (وهى جزيرة تقع فى المحيط الأطلسى بالقرب من الساحل الأمريكى شهدت فى أوائل عام ١٩٥٧ مؤتمر برمودا الذى عقد بين الإنجليز والفرنسيين والأمريكان عقب الاعتداء الثلاثى على مصر . وكانت أول الأمر تابعة لبريطانيا . ثم آلت إلى أمريكا . وشاءت الأقدار ألا يجتمع الإنجليز فى هذه الجزيرة إلا بعد هزيمتهم فى حرب السويس على يد المصريين) . وتراءت له هذه الجزيرة على أنها ستكون أشبه شىء « بالمدينة الفاضلة » وأخذ يحلم بتعليم أهلها الأخلاق والقيم الفاضلة . وحصل فعلا على موافقة حكومته الشفهية بالسفر على رأس بعثة إلى هذه الجزيرة واعتمد المبلغ اللازم للمشروع . ورحل باركلى فعلا عن بريطانيا ، مصطحباً زوجته الجديدة ، فى سبتمبر عام ١٧٢٨ متجهاً إلى برمودا . ولكنه لم يصل إليها . حيث أنه أرسى قلاعه فى ميناء نيو بورت بجزيرة رودس وانتظر عبثاً وصول المبلغ الذى كانت قد وعدته به الحكومة . ولم يجد باركلى مناصاً آخر الأمر من العودة إلى أوربا ثانية ، فوصلها عام ١٧٣٢ بعد أن فشل مشروعه .

ولكنه خلال الفترة التى أمضاها فى جزيرة رودس استطاع أن يحرر كتاباً جديداً هو : « ألسيفرون أو الفيلسوف الصغير » Alciphor or the Minute Philosopher وقد أصدره باركلى فور عودته إلى إنجلترا عام ١٧٣٢ . ويشتمل على سبع محاورات كلها نقد ضد المفكرين الأحرار ، وعلى رأسهم شافتسبرى وكولينز . والكتاب كله دفاع عن الدين المسيحى ومحاولة لإرساء الأخلاق على تعاليم هذا الدين . والمحاورة الرابعة هى أهم هذه المحاورات السبع ؛ وفيها يبحث المؤلف وجود الله وينتهى إلى أن الطبيعة رموز فى رموز ، وإلى أن الله دائم الحديث معنا عن طريق هذه الرموز .

وفى عام ١٧٣٣ نشر باركلى كتاباً آخر هو « دفاع وشرح لنظرية الإبصار » Theory of Vision vindicated and explained . وفيه يقيم البرهنة على وجود الله — كما هو الحال فى المحاورة الرابعة من ألسيفرون — على أساس اللغة البصرية الرمزية .

وبعد نشر هذا الكتاب عين باركلى عام ١٧٣٤ رئيس أساقفة كلوين Cloyne . وأمضى فى هذا المنصب ثمانية عشر عاماً ، أمضاها فى سكون وعزلة . ومع ذلك فقد نشر فى هذه الأثناء بعض الرسائل الإصلاحية الصغيرة . بل إنه فى الفترة التى اجتاحت بريطانيا المجاعة عقب شتاء ١٧٤٠ ، وانتشرت الأمراض ، حاول أن يقدم دواء لمواطنيه . فلم يجد خيراً من « ماء القطران » لاعتقاده بصلاحيته فى شفاء جميع الأمراض . وفى آخر كتاب له وهو كتاب « الحلقات » Siris الذى ظهر عام ١٧٤٤ يعدد لنا باركلى الأمراض التى يشفيها ماء القطران . وبعد هذا الحديث الطبى الكيميائى عن فوائد هذا الماء يعرج باركلى على الميتافيزيقا ثم الدين . وهذا هو الجزء الذى يهمنا من الكتاب . ويبدأ من الفقرة ٢٩٩ تقريباً . وفى هذا الكتاب يظهر تأثر باركلى بأفلاطون ، وبالتفكير العقلى، ويبتعد عن مذهبه الحسى ، ويعترف بقيمة الدور الذى يلعبه الفكر فى

المعرفة بعد أن وجه معظم اهتمامه فى مؤلفاته الأولى إلى الحس .

وفى ١٤ من يناير ١٧٥٣ قضى باركلى نحبه ، وهو جالس وسط عائلته جلسة هادئة . بعد أن خلف وراءه ثروة فلسفية هائلة . وبعد أن اقترن اسمه فى تاريخ الفلسفة بمؤسسى المذهب اللامادى .

الطبعات المختلفة للمحاورات

ظهرت المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس عام ١٧١٣ . وأعيد طبعها عام ١٧٢٥ . ثم ظهرت آخر طبعة لها فى حياة باركلى عام ١٧٣٤ . وقد طبعت المحاورات ضمن مؤلفات باركلى الأخرى فى طبعة « فريزر » فى مطبعة كلاريندون بأكسفورد . ونشرت عام ١٨٧١ فى أربعة أجزاء . وأعيدت هذه الطبعة مرة أخرى عام ١٩٠١ . وظهرت فى أربعة أجزاء أيضاً وهى لنفس الناشر . ثم طبعت طبعة ثالثة ظهرت فى ثلاثة أجزاء ، وتحتوى فقط على الكتب التى ظهرت فى حياة باركلى . وقد أخرج هذه الطبعة « سامبسون » عام ١٨٩٧ . وتحتوى على مقدمة عن تاريخ حياة الفيلسوف كتبها « بالفور » . وظهرت طبعة رابعة للمحاورات ، ضمن مؤلفات باركلى فى طبعة جديدة ، هى طبعة « لوس وجيسوب » ، ظهر الجزء الأول منها فى لندن عند الناشر نلسن عام ١٩٤٦ ، والثانى عام ١٩٤٩ ، والثالث عام ١٩٥٠ ، والرابع عام ١٩٥١. وظهرت كذلك طبعتان فرنسيتان للمحاورات على حدة : نشر الأولى « لى مير » Le maire والثانية « لى روا » Le Roy فى مجموعة مختارة من مؤلفات باركلى .

عنوان المحاورات

يقرأ الكتاب من عنوانه . وللمحاورات عنوانان : عنوان رئيسى وعنوان فرعى . إذا نحن ألممنا بهما ، فسيتضح لنا على الفور موضوع الكتاب .

أما العنوان الرئيسى فهو كما نعلم « المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس » . وهيلاس وفيلونوس اسمان لشخصين وهميين اختارهما باركلى بعناية . لأن الاسم الأول وهو « هيلاس » مشتق من الكلمة اليونانية « هوليه » وهى الهيولا أو المادة . وبهذا سيكون هيلاس مرادفاً للفيلسوف المادى الذى يدافع عن وجود المادة ويمثل وجهة النظر المضادة لفلسفة باركلى . أما وجهة نظر باركلى فقد لجعل فيلونوس يعبر عنها . وفيلونوس اسمه اشتقه باركلى من المقطع الأول للكلمة « فيلوصوفيا » ومعناها فلسفة أو محبة الحكمة . وسيكون فيلونوس بهذا هو الناطق بلسان باركلى،المعبر عن وجهة النظر اللامادية . والكتاب كما هو واضح من عنوانه « محاورات » أى أنه كتب على طريقة الحوار . وهو أول كتاب يختار باركلى فيه هذه الطريقة للتعبير عن أفكاره الفلسفية . وطريقة الحوار هى الطريقة الأفلاطونية فى التأليف كما نعلم . لكن اختيار باركلى لها فى هذا الكتاب لا يعنى مطلقاً تأثره بأفلاطون فى فلسفته . أما تأثره به فقد بدا فى كتاب آخر له ألفه باركلى بعد ١٩ عاماً من تأليفه المحاورات واختار فيه طريقة الحوار الأفلاطونى كذلك ، ونعنى به كتاب « ألسيفرون أو الفيلسوف الصغير » . ففى هذا الكتاب يتجاوز تأثر باركلى بأفلاطون مجرد الشكل ، ليصبح تأثراً بالفلسفة الأفلاطونية نفسها . وقد ظهرت المحاورات الثلاث بعد كتاب « المبادئ » بأعوام ثلاثة . وفى هذه الأعوام الثلاثة ، كان قد تسنى لباركلى أن يجمع كل الاعتراضات التى أثارها النقاد حول مذهبه فى الصورة التى ظهر بها فى المبادئ ، وتسنى له أن يصوغها فى صورة اعتراضات من هيلاس فى كتاب المحاورات . بحيث نستطيع أن ننظر إلى المحاورات من هذه الناحية على أنها أهم من كتاب المبادئ ، وأوفى منه فى

توضيح فكر الفيلسوف . هذا فضلا عن أن الحوار فى التأليف الفلسفى ، تمتاز عن طريقة العرض التقليدي للمذاهب ، بسهولتها وبمخاطبتها للجماهير .

وللمحاورات ، بالإضافة إلى عنوانها الرئيسى ، عنوان آخر فرعى ، وضعه باركلى تحت العنوان الأول على النحو التالى : « المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس — الغرض منها ببساطة هو البرهنة على حقيقة المعرفة الإنسانية وكمالها ، وعلى طبيعة النفس اللاجسمانية ، وعلى العناية المباشرة للألوهية . وذلك لدحض آراء الشكاك والملاحدة ، وكذلك من أجل رسم منهج يجعل العلم أكثر سهولة ونفعاً واختزالا »

وهذا العنوان الفرعى يلخص الموضوعات الثلاثة الرئيسية التى تناولتها المحاورات وهى : البحث فى المعرفة الإنسانية — البحث فى النفس وطبيعتها الروحانية — البحث فى العناية الإلهية ووجودها المباشر بيننا . وسنشير الآن إلى وجهة نظر باركلى فى كل من هذه الموضوعات ، إذ أن إلمامنا بها سيجعلنا نحيط بموضوع الكتاب . وسنعرف من خلال عرضنا لها أن باركلى كان يعتقد أن مذهبه اللامادى هو خير ما يمكن أن يقف فى وجه المذهب الشكى والمذهب الإلحادى معاً . أما ما ذكره باركلى بعد ذلك فى العنوان الفرعى من أنه كان يرمى أيضاً من وراء كتابة المحاورات إلى « رسم منهج فى العلوم يجعلها أكثر سهولة ونفعاً واختزالا » ، فنلاحظ أننا لا نلتقى فى المحاورات بمنهج تفصيلى فى بحث العلوم ، على نحو ما نجد مثلا عند ديكارت فى كتاب « المقال فى المنهج » الذى كتبه « لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة فى العلوم » . وأغلب الظن أن باركلى لم يذكر المنهج فى العنوان الفرعى إلا لمجرد الجرى وراء فلاسفة المنهج من القرنين (١٦، ١٧) ولكنه قد يكون قصد إلى المنهج قصداً غير مباشر . فاعتقاده بأن المادة تنحل فى نهاية الأمر إلى مجموعة من الإحساسات الذاتية ، وبأنه لا وجود لجوهر مادى وراء هذه الإحساسات من شأنه أن يوفر على العلماء مجهوداً هائلا فى البحث عن طبائع خفية مستورة ، وهو بحث لا طائل تحته . وأيا ما يكون الأمر ، فسنكتفى الآن بعرض سريع لوجهة نظر باركلى حول كل من هذه الموضوعات الثلاثة الرئيسية التى اشتمل عليها العنوان الفرعى للمحاورات ، مستعينين فى هذا ببعض النصوص المقتبسة من المحاورات .

المعرفة الإنسانية

يقول الفلاسفة إن هناك جوهراً مادياً قائماً خارج الذهن يسمى « المادة » وأنه يختلف فى طبيعته عن مجموعة الإحساسات الذاتية التى تستطيع حواسنا أن تدركها من الأشياء ساعة إدراكنا لها . لكن باركلى يعتقد أن ما يسمونه بالمادة ليس إلا هذه الإحساسات ، وأنه لا شيء وراءها يكون مقوماً لها . بل ويعتقد أن هذا الذى ينادى به الفلاسفة منافس لما يعتقده رجل الشارع بشأن المادة . فيقول مثلا على لسان فيلونوس : « سل البستانى لم يعتقد بوجود شجرة الكريز أمامه فى الحديقة ؟ وسينبئك أنه يعتقد بوجودها لأنه يراها ويلمسها ، وفى كلمة واحدة لأنه يدركها بحواسه . ثم سله بعد ذلك لم يعتقد أن شجرة البرتقال غير موجودة ؟ فسينبئك أنه يعتقد بعدم وجودها لأنه لا يدركها . وعلى ذلك ، فان الشيء الواقعى أو ما له وجود عنده هو ما يدركه بحواسه . أما ما لا يدركه فيقول عنه إنه غير موجود » (المحاورة الثالثة) .

فالمادة عند باركلى مجموعة من الكيفيات المحسوسة التى يتوقف وجودها على إدراك حواسنا لها ، بمعنى أن وجودها ليس قائماً فى الخارج بل فينا . وفى المحاورة الأولى من المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس يقوم باركلى باستعراض خصائص المادة التى اصطلح على تسميتها بالخصائص الثانوية ، من

حرارة وبرودة وطعوم وأصوات وألوان . وينتهى إلى أن هذه الكيفيات ما هى إلا إحساساتنا الذاتية ، وأنها لا تختلف فى طابعها الذاتى عن إحساساتنا باللذة أو الألم . ثم يستعرض بعد ذلك الخصائص الأخرى للمادة التى اصطلح على تسميتها بالخصائص الأولية أو الأساسية مثل الامتداد والشكل والصلابة والحركة ، ويقرر بصددها ما سبق أن قرره فى الخصائص الثانوية . وذلك لأن الخصائص الأولية لا توجد إلا مصاحبة للخصائص الثانوية ، ومتلبسة بها . فما يجرى على هذه لا بد أن ينسحب على تلك . فلا مجال بعد هذا لافتراض « موضوع » لكيفيات المادة ، تتقوم هذه الأخيرة به . وهذا العرض لجميع خصائص المادة يستغرق المحاورة الأولى كلها تقريباً .

ولكى ينفى باركلى أى مبرر لوجود جوهر مادى يكون مقوماً للكيفيات نجده ، فى نهاية المحاورة الأولى وفى الثانية ، يتابع جميع الأقوال التى قال بها الماديون ، على لسان هيلاس ، ليثبتوا من ورائها أن المادة « شىء » ما ، وراء الإحساسات . ثم يفندها واحداً بعد الآخر ، على لسان فيلونوس . فالمادة ليست شيئاً ممتداً تحت الكيفيات ، لأن من بين هذه الكيفيات الامتداد ، وسيكون معنى قولنا إن المادة تمثل امتداداً تحت الكيفيات ، أنها تمثل امتداداً تحت الامتداد ، وسيكون الامتداد الجديد الذى افترضناه محتاج إلى امتداد آخر وهكذا إلى غير نهاية . ولن تكون كذلك نموذجاً لأفكارنا وصورنا ، لأن هذا النموذج الثابت غير المفكر لا يمكن أن يكون علة لأفكارنا وصورنا ، التى تتصف بالفاعلية والتغير معاً . وأخيراً ، فان المادة لا يمكن أن تكون أداة أو « مناسبة » يستخدمها الله فى تدبيره للكون ، لأن الله ليس فى حاجة إلى أدوات أو مناسبات ليمارس تدبيره للكون من خلالها ، ولأن افتراض هذه الأدوات من شأنه أن يحد القدرة الإلهية .

وينتهى فيلونوس بأن يقول لهيلاس : إننى لا أفهم معنى لما تزعمه من أن المادة تقف تحت الخصائص وتقومها . ويردف متهكماً : « ربما يكون هذا على النحو الذي تقف به الأرجل تحت جسم الإنسان ! ؟ » .

فخلاصة رأى باركلى فى المعرفة الإنسانية أن المادة التى قيل عنها إنها تمثل موضوعاً قائماً فى الخارج تتجه ذواتنا إلى معرفته ليست فى حقيقة الأمر إلا مجموعة من إحساساتنا وانفعالاتنا الذاتية ، وأن الموضوع الحقيقى للمعرفة ليس شيئاً خارجياً بل هو ذواتنا وإحساساتنا . وهذا هو ما عبر عنه باركلى فى مبدئه الشهير ، وهو : « الوجود إدراك » . أو « وجود الشىء قائم فى إدراكه » .

وكان من الطبيعى أن يساء فهم هذا المبدأ ، إذ أنه يؤدى فى ظاهره إلى إلغاء الوجود الواقعى المادى للأشياء . ويروى فى هذا الصدد أن باركلى توجه فى يوم عاصف مطير لزيارة أحد معاصريه وهو « سويفت » . وظل يقرع باب مضيفه دون جدوى ، لأن « سويفت » أصر — بالرغم من سقوط الأمطار — على عدم فتح الباب له ، قائلا : « إذا كانت أقواله صحيحة ، فلم يصر على قرع الباب ؟ ألا يستطيع أن يدخل إلى هنا والباب مقفل ؟ » . مع أن باركلى لم يقصد مطلقاً إلغاء الوجود الواقعى للأشياء ولم يشك لحظة واحدة فى واقعية الأشياء المادية . وأسىء فهم مبدئه كذلك فظن أنه يؤدى إلى أن تصبح الذات خالقة لوجود الشىء ، مع أن الذات عند باركلى ليس من مهمتها خلق وجود الشىء أو الموضوع ، لأن الموضوع « معطى » أمام الذات ، وأن هذه الأخيرة تجده أمامها ، ولا تملك — حتى لو أرادت — أن تمتنع عن إدراكه . وذلك لأن الإنسان — كما يقول باركلى فى المحاورة الأولى — (يشعر بأنه حر فى أن يقطف هذه الزهرة ، وبأن يقربها من أنفه ليشمها

لكنه لا يشعر بحرية شمها ، لأنه لا يملك الامتناع عن شمها » . وما ذلك إلا لأن الذات منفعلة بما يقدمه أمامها العقل اللامتناهى الإلهى من شتى الموضوعات ، ولأن القوة الفعالة فى عملية الإدراك عند باركلى ليست المادة ، وليست الذات الفردية ، بل هى بالأحرى العقل اللامتناهى أو الله الذى يملك وحده أمر بسط هذه الأشياء المادية أمام الذات الفردية لتدركها كما يملك أمر منعها عن إدراكها .

إن كل ما قصد إليه باركلى من وراء مبدئه القائل بأن الوجود إدراك أنه لا معنى لقولنا إن شيئاً ما موجود دون أن يكون هذا الشيء ملموساً أو مسموعاً أو مرئياً . . الخ ، وأن الحكم بوجود شيء يتضمن فى الوقت نفسه الحكم بادراكه أو — على الأقل — الحكم بقابليته للإدراك بواسطة عقل ما أو ذات ما لأى شخص مدرك أو قادر على الإدراك . أى أن غاية ما أراده باركلى هو تقرير علاقة بين الذات والشيء ، علاقة حضور أو عدم غياب من جانب الذات فى اللحظة التى تقرر فيها أن ثمة شيئاً ما موجود . وهو أمر لا غبار عليه إطلاقاً ، ويتفق مع ما نقول به اليوم حول ذاتية الإدراك فى الأدب والعلم على السواء .

النفس الإنسانية

إذا كان باركلى قد ألغى وجود الجوهر المادى (دون أن يؤدى هذا إلى إلغاء الوجود الواقعى للمادة فى معناها الشائع كما قدمنا) ، فقد وقف من النفس الإنسانية موقفاً مختلفاً . لأنه تصورها على أنها جوهر مقوم للإحساسات المتفرقة التى تتعاقب عليها . وهو فى هذا يختلف عن ديفيد هيوم الذى نظر إلى النفس على أنها ليست شيئاً آخر إلا هذه الإحساسات المتفرقة . وإذا كان باركلى قد حصر المعرفة الإنسانية للمادة فى ضرب واحد من المعرفة ، هو المعرفة الحسية على نحو ما رأينا ، أو اهتم فى ميدان المادة بهذا اللون من المعرفة على حساب المعرفة العقلية — على عكس فيلسوف عقلى مثل كانط الذى اتجه إلى إرجاع المادة لحظيرة الذات العاقلة بمقولاتها المختلفة — فقد رأى أن معرفة الإنسان لنفسه تتم عن طريق ضرب آخر من المعرفة ، أطلق عليه اسم اللمحة العقلية The notion ويقصد بها باركلى لوناً من الحدس العقلى الذى أدرك به إنّيتى ، وجميع العمليات العقلية التى تصدر عنى . وقد عرض لرأيه هذا حول النفس الإنسانية وطبيعتها اللاجسمانية ، وطريقة إدراكنا لها فى المحاورة الثالثة .

العناية الإلهية

خشى باركلى أن يؤدى قوله بأن وجود الأشياء مرتبط بادراكها إلى أن يصبح هذا الوجود وهمياً خيالياً ، وذلك لأنه قد يؤول على أنه وجود مرهون بلحظة الإدراك ، موقوت بها ، يتلاشى عندما يتوقف الإنسان عن الإدراك أو عندما يشيح بوجهه عن الموضوع المدرك . وفى هذه الحالة سيصبح من العسير علينا أن نفرق بين موضوعات الحس وموضوعات المخيلة . لأن هذه الأخيرة من اختراعات الذات ، وموقوتة هى الأخرى بلحظة التخيل . ومن أجل أن يبعد هذا الظن عن الأذهان ذهب إلى أن الأشياء فى الوقت الذى تكون غير مدركة بالذات الفردية أو بالعقل البشرى المتناهى تكون قائمة فى عقل آخر أكثر شمولا منه ، هو العقل اللامتناهى الإلهى . ولذلك فان الأشياء المادية الواقعية حاصلة عند باركلى على وجود دائم مستمر ، وذلك بفضل قيامها فى العقل الإلهى . الأمر الذى يؤدى فى الوقت نفسه إلى أن يصبح الوجود الدائم الواقعى للأشياء على نحو ما نشاهدها فى الكون ، دليلا — عند باركلى — على وجود الله . والحق أن نقطة الخلاف بين باركلى والماديين قائمة فى هذا الموضع بالذات . أى أنها ليست قائمة — خلافاً لما هو شائع — فى أنه ألغى وجود

المادة بينما اعترفوا هم بوجودها ، إذ أننا قد رأينا أن كلا من باركلى والماديين قد اعترف بوجود المادة . بل قائمة بالأحرى فى أن باركلى قد قرر أن الوجود الدائم الواقعى للأشياء راجع إلى وجود إله أو عقل إلهى يحيط بها ، بينما قرر الماديون أن المادة حاصلة على وجودها الدائم الواقعى من ذاتها ، وأنها ليست فى حاجة إلى عقل إلهى يضمن لوجودها الاستمرار . هذا بالإضافة إلى أن الماديين قد ذهبوا إلى أن المادة ليست مستقلة فى وجودها عن العقل الإلهى فقط ، بل هى مستقلة كذلك عن عقول البشر جميعهم . واعتقاد الماديين هذا — فضلا عن أنه يكشف عن إلحادهم الصريح — فهو يؤدى فى نظر باركلى إلى الشك . وذلك لأنه قائم على الاعتقاد بوجود شىء لا قبل لى بمعرفته . فهو يتضمن حكمين : الحكم بوجود شىء ، والحكم بجهلى بهذا الشىء . وهذا هو الشك بعينه . أما موقف باركلى فهو على النقيض من هذا لأن ارتباط وجود الأشياء عنده بعقل ما ، سواء كان هذا العقل هو العقل البشرى أو العقل الإلهى — مشبع باليقين ويقوم على الاعتقاد بأن فى وسع العقل البشرى أن يحصل على المعرفة .

ووجود الأشياء فى العقل الإلهى عند باركلى يجب أن لا نؤوله أى تأويل قائم على مبدأ « وحدة الوجود » . وعلينا كذلك أن نفرق بينه وبين قول ملبرانش فى أن الأشياء موجودة فى الله ، وأننا ندرك هذه الأشياء فى الله فتكون معرفتنا بها من قبيل « الرؤية فى الله » ، على نحو ما نجد ذلك عند ملبرانش (نقد باركلى ملبرانش فى المحاورة الثانية) . وذلك لأن كل ما قصد من ورائه باركلى فى قوله هذا هو أن الإنسان يشعر بأنه ليس مصدراً للصور الحسية التى يدركها : « وذلك لأنى عندما أفتح عينى أو أذنى جيداً وقت ما يحلو لى فلا أستطيع أن أحدد أى نوع من الصور سيؤثر فى . فلا بد أن تكون الأشياء قائمة فى عقل آخر . وهذا العقل يريد أن يعرضها على . . . واستخلص من هذا كله أن ثمة عقلا تصدر عنه مختلف الأحاسيس التى أشعر بها » (المحاورة الثانية) . هذا فضلا عن أن العقل الإلهى عند باركلى هو مصدر وحدة الأشياء وهويتها ، ومصدر كل ما نشاهده فى العالم من تماسك ونظام .

* * *

وبعد ، فما هو الحكم الذى نستطيع أن نخرج به بعد قراءتنا للخطوط الرئيسية للمذهب اللامادى كما بدت من خلال عرضنا السابق لموضوعات كتاب المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس ، وهو أهم كتبه على الإطلاق ، ومن أهم ما أضافته الإنسانية إلى تراثها الفكرى عبر تاريخها الطويل ؟ نريد أن نعرف إلى أى حد كانت اللامادية عند باركلى مذهباً مثالياً ، على الرغم من أن الإنسانية لم تقف كثيراً عند التفرقة بين اللامادية والمثالية ، واقترن اسم باركلى عندها بأنه واضع أسس المثالية واللامادية معاً ؟ فالمثالية هى المذهب الذى يرجع الوجود إلى الفكر ، ويلغى المادة لحساب الذات . وقد نقد باركلى وجود الجوهر المادى وألغاه ، وربط وجود الأشياء بالإدراك ، ونظر إلى كيفيات المادة على أنها تأثرات ذاتية . وكل هذا يوحى — وقد أوحى بالفعل إلى الكثيرين — بأن باركلى فيلسوف مثالى . لكننا إذا نظرنا نظرة إنصاف فى فلسفة باركلى ، وجدنا أنه لم يقصد من وراء نقده للجوهر المادى إلغاء وجود المادة ، بل قصد فقط حضور الذات فى عملية الإدراك . ووجدنا أيضاً أن الكلمة الأخيرة فى عملية الإدراك عنده ليست للذات المدركة ، لأن هذه الذات ليست هى التى تخلع الوجود على الأشياء بل تجد هذه الأشياء معطاة أمامها ولا تملك حتى الامتناع عن إدراكها . أما الكلمة الأخيرة فى الإدراك ، فقد جعلها باركلى لصاحب الكلمة العليا ، لله جل شأنه . ومن أجل هذا ، فان

اللامادية عند باركلى تبدو أمامنا على أنها مذهب روحى دينى أكثر منها مذهب مثالى فى نظرية المعرفة . وفى هذه النظرة الروحية إلى الكون والمادة ، استحالت الأشياء المادية — بعد أن جردت من وجودها الجوهرى الكثيف المقوم للصفات — إلى صور مدركة شفافة حاضرة أمام الذات ، على نحو تعكس معه فى غلالتها الرقيقة وجود الله وتكشف عن عنايته الدائمة بالكون . « فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » .

لكن باركلى مع ذلك مسئول أمام الإنسانية عن تأويل مذهبه تأويلا مثالياً . فاهتمامه بالمعرفة الحسية على حساب المعرفة العقلية فى الإدراك أحال الشىء المدرك إلى مجرد تأثرات ذاتية وترك الناس فى شك من أقواله فى واقعية الأشياء . ثم إن اعتراف باركلى بواقعية الأشياء ، ألا يحمل معه بذور الشك حول صدق مبدئه القائل بأن الإدراك ذاتى كله ؟ يبدو أن الإدراك ليس ذاتياً كله ، بدليل قول باركلى نفسه فى أن الأشياء « معطاة » أمام الشخص المدرك ، ويلتقى بها أمامه فى لحظة الإدراك (وهو قول شديد الشبه بأقوال هوسرل فى الإدراك) . حقاً ، إن باركلى جعل الله أو العقل اللامتناهى هو المصدر الوحيد لهذا « العطاء » فى الإدراك . ولكن أيا كان مصدره ، فان هذا من شأنه أن يؤدى إلى أن الإدراك ليس ذاتياً كله ، كما ذهب باركلى . ثم هَبْ بعد ذلك إلى أن الإدراك ذاتى كله ، فما علاقة الإدراك بالوجود ؟ وإلى أى حد نستطيع أن نزعم أن الإدراك ما دام ذاتياً فالوجود هو الآخر لا بد أن يكون ذاتياً ؟ من الأوفق أن نفرق بين الإدراك والوجود ، كما فعلت المدرسة الواقعية الجديدة (النيور يالبزم) ، لأننا نشعر أثناء فعل الإدراك — حتى لو سلمنا بأنه ذاتى كله — بأن جزءاً كبيراً أو صغيراً من وجود الشىء يقاومنا ، ويفرض نفسه علينا ، وذلك لأنه يتبع دائرة خاصة هى دائرة الوجود . ولا شك أن هذه الدائرة تتعدى دائرة الإدراك ، ومهما قيل فى هذه الدائرة الأخيرة فانها ستكون دائماً مستغرقة فى دائرة الوجود ، ولن تتطابق معها أبداً . وصدق « صمويل ألكسندر » إذ يقول إن نظرية المعرفة لا تمثل إلا فصلا واحداً من باب الوجود .

النصوص

إلى جانب النصوص التى وردت فى العرض السابق ، نقدم هذا النص من المحاورة الثانية .

هيلاس : ماذا ؟ ألم تتفق معى فى جميع المقدمات ؟ لماذا أراك إذن تتخلص من النتيجة وتتركنى وحدى أتحمل مغبة هذه الأغاليط التى قُدْتنى أنت إليها ؟ إن موقفك هذا يجانب الحق بكل تأكيد .

فيلونوس : إنى أنكر اتفاقى معك فى تلك الأفكار التى قادتك إلى الشك . فقد ذهبت إلى أن حقيقة الأشياء المحسوسة قائمة فى وجود مطلق يوجد خارج عقولنا ونفوسنا ، ومتميز عن كونها مدركة بواسطتنا . وتبعاً لهـــذه الفكرة التى كونتها عن الحقيقة ، اضطررت إلى إنكار الوجود الحقيقى للأشياء المحسوسة . ومعنى ذلك أن مبادئك نفسها ، هى التى انتهت بك إلى الشك . أما أنا ، فلم أقل أبداً ولم أظن مطلقاً أن حقيقة الأشياء المحسوسة من الممكن أن نعرفها على هذا النحو . فمن الواضح أن الأشياء المحسوسة بالنسبة إلى ، وتبعاً للحجج التى سقتها لك ، وسلمت أنت بها ، لا وجود لها إلا فى العقل أو النفس .

ولكني لا أستخلص من هذا أنه لا وجود حقيقى لهذه الأشياء المحسوسة . إذ أنى أسلم بأن لها وجوداً لا يتوقف على تفكيرى ، ومستقلا عن كونها مدركة بواسطتى . وأقول إنه لا بد من وجود عقل آخر تقوم فيه هذه الأشياء . وعلى ذلك ، فكما أنى على يقين من أن دنيا الأشياء المحسوسة لها وجود حقيقى ، كذلك فانى على يقين من وجود عقل لانهائى محيط يحتوى هذه الأشياءالمحسوسة كلها ويضمها ويحفظها .

هيلاس : ما تقوله هذا ليس شيئاً مختلفاً عما أعتقده أنا ويعتقده جميع المسيحيين ، لا بل وعما يعتقده سائر البشر الذين يقرون بوجود إله عليم محيط بكل شيء .

فيلونوس : لا . بل هناك فارق بيننا . فالناس جميعاً يعتقدون بأن الله هو الذى يعرف ويدرك الأشياء لأنهم يعتقدون بوجود الله . أما أنا ، فعلى العكس من ذلك ، أبرهن مباشرة على وجود الله ابتداء من القضية التى تقول إن جميع الأشياء المحسوسة يجب أن تكون مدركة به .

هيلاس : ولكن ما دمنا جميعاً نؤمن بهذا ، فالبحث عن الطريقة التى توصلنى إلى هذا الاعتقاد لا يعنينى .

فيلونوس : ولكننا لسنا جميعاً متفقين تماماً حول ماهية هذا الإيمان . فالفلاسفة مثلا ، على الرغم من أنهم يسلمون بأن الله يدرك الأشياء الجسمانية المادية ، إلا أنهم يقولون إن لهذه الأشياء وجوداً مطلقاً ، مستقلا عن إدراك أى عقل . وبالإضافة إلى هذا ، أليس الفارق واضحاً بين أن أقول : إن هناك إلها قادراً على إدراك جميع الأشياء ، وبين أن أقول : إن الأشياء المحسوسة لها وجود حقيقى ، وإذا كانت كذلك ، فلا بد أن تكون مدركة بواسطة عقل لامتناه ، ولذلك ، فان هناك عقلا لامتناهياً أو إلهاً ؟ فهذا القول الثانى يمدنا ببرهان مباشر ، قائم على أساس واضح ، على وجود الله . وهو قول يختلف عما قدمه لنا الفلاسفة ورجال الدين ، من خلال مناقشاتهم العديدة ، كدليل على وجود الله ، عندما اتخذوا نقطة بدئهم فى هذا من جمال المخلوقات وفائدتها ، ثم رتبوا على هذا ضرورة وجود صانع أو إله خالق لهذا الجمال .

